

الدكتور على ابراهيم باشا

كان أول عهدي به منذ أكثر من ربع قرن حين جلست منه مجلس الطالب المبتدئ من أستاذه الضخم ، حيث يباح للطالب أن يسرف في الاعجاب باستاذة ؛ وآخر عهدي به قبيل وفاته بساعات حين جلست منه مجلس الصديق أشير عليه بما يخفف عنه بعض ألمه . فما كان حي له وتقديرى إياه في العهد الأول بأكثر منه في العهد الأخير ، ولم يزدنى طول خبرتى به إلا إعجاباً . ومن الناس من تراه أعظم ما يكون عن بعد ، تتضاءل معه هفوات الرجال ، ومنهم من لا تتبين طيب معدنه إلا عن قرب . وكان على ابراهيم في كلتا الحالتين موضع إجلال أقرب الناس إليه وأبعد الناس عنه .

ولعلى لا أجد وصفاً له أكثر دلالة عليه من أنه كان بناء ، فقد شيد كثيراً وكأنا عاهد على أن لا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهاً في مصر . وكان يرى أن ينشئ أولاً وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتم ما أنشأ . وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأ وعلى الزمن أن يستكمل النقص . وكانت فيه صفات تدق على غير البنائين ، فكان يضع نصب عينيه غايته لا يجيد عنها لئى أمر من الأمور ، وكان يرى أن الانشاء أهم كثيراً من المبادئ والنظريات . وكان أقدر الناس على التدبير الممتد لا ترعجه العقبات ؛ فان لم يستطع تدليلها احتال لها حتى لا تنفق دون غايته ، وإن بعدت . فهو مثل حى لنوع من العقلات العملية التى لم ينتج الشرق منها الكثيرين إلا أخيراً ، وأعمودجاً للتفكير الموضوعى البحت الذى اعتاد الناس أن يروه أكثر ما يكون فى الأمم الشمالية ، حتى كاد يعدّ صفتهم الأولى .

وأكبر ما شيد على ابراهيم فى مصر الطب الحديث ؛ فكلنا مدينون له بما هيا لنا من وسائل إتقان ذلك العلم . ولكننا اهتدينا بهديه واحتدينا طريقته ، ولم يكن

له هو مثال يحتديه ، بل اختط لنفسه سبيلاً مبتكراً وحملنا عليه ، فلم يشذ أحد منا عنه حتى الآن . ثم أحكم صلتنا بالعلماء الغربيين ومهد السبيل للكثيرين منا حتى لا نقل عن هؤلاء علماً وعملاً ، وحبانا بكل ما أوتى من وسائل التشجيع ، وضرب لنا مثلاً حياً لما يجب أن تكون عليه صلاتنا هؤلاء العلماء . فقد كان أحب الناس إلى كبار الجراحين العالمين لما شاهدوه من علمه وفنه وحده على رقى الطب والأطباء . وله الفضل الأول أن أصبح الطب في مصر مصرياً . وهو عندنا جراح قبل كل شيء ، وجراحته صورة من نفسه . فكانت طريقته في الجراحة طريقة الفنان : كل عملية له عملاً فنياً جميلاً . وكان يكره أن تلهيه صغار الأمور عن كبارها ، وكان لا يريد السرعة وإن كان سريعاً ، ولا يريد أن يدل على المهارة وإن كان ماهراً ، ولا يتوخى إلا الوصول إلى غايته من أسهل الطرق . وعنى عناية خاصة بجراحة البلاد الحارة ، وله فيها مبتكرات لم تتول عندنا المرجع الأكبر لهذه الأمراض .

وكلية الطب كلها من إنشائه . وعهدى بها وهي صغيرة مبانيها ، ضئيلة معاملها ، فقيرة في الرجال والمال . وهي اليوم من أكبر المؤسسات ، ومعاملها ضخمة ، ورجال العلم فيها عديدون ، وإنتاجها كثير . ثم أنشأ الجمعية الطبية ورأسها طول حياته . وبنى دار الحكمة وأنشأ مجلته وجعلها ندوة الأطباء . ثم أحكم الصلة بينها وبين البلاد العربية ، فأصبحت مؤتمراتها حدثاً علمياً لا يعدله حدث آخر في الشرق الأدنى كله . ثم أنشأ نقابة الأطباء وبذل في ذلك جهداً مفضياً . وقامت دونه عقبات كبرى مدى عشرات السنين ، فلم يكن له عزم ، وساوَم الهيئات النאוثة له كثيراً حتى تم له ما أراد من تنظيم طائفته ، وكانت من أعز أمانيه عليه .

ثم وجه همه إلى النواحي العلمية الأخرى ، وانتخب عضواً في أكثر المجالس العلمية في مصر . وكان له النصيب الأكبر في تكوين الجامعة ، وكان يعدها عمله الأول . وكان حريصاً على أن لا يقف دون رقيها شيء ، ولم يبخل عليها يوماً بمجهود أو مال ، وما زال بها حتى أصبحت ما هي عليه الآن . وكان فخوراً بها غاية الفخر . وله النصيب الأكبر في الدعوة إلى إنشاء جامعة فاروق وتكوينها ، ولو امتدت به الحياة لدعى إلى جامعة أسيوط . ثم شغل بالحياة الاجتماعية ، ورأس عدة مشروعات غايتها الإصلاح

الاجتماعى . وكان رآيه فى ذلك أن أى عمل ، وإن قل ، فهو كسب لبلاد لم تعهد من قبل عناية بالأمور الاجتماعية ، وإن إحياء الوعى الاجتماعى أمر يجب أن نعى به جميعاً . فهذه المؤسسات الصغيرة لها دلالة كبرى ، وأثر يفوق كثيراً ما تؤديه من خدمات .

أما المؤسسات الكبرى التى رأسها فأهمها جمعية الهلال الأحمر . وأول صلته بها حين كان جراحاً موفداً من قبلها مع بعثة كبيرة إلى تركيا فى حرب البلقان . ولم تنقطع صلته بها حتى أصبح لها رئيساً ، فأحياها وأصبحت من مؤسسات القطر الناجحة نجاحاً تاماً . ولم تكن هناك مؤسسة اجتماعية لها صلة بالطب إلا وهو رأسها المدير : فقد حمل عبء مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية إلى أن قامت الحرب ، وساهم فى إدارة جمعية الاسعاف .

هذا ما خدم به الطب والعلم والاجتماع ، أما ما نحن مدينون له به شخصياً فكثير جداً . وليس فى مصر طبيب لم يجد فيه الصديق الأوفى والأب الناصح ، وليس منا من لم يلجأ إليه فى شدة ، فوجد منه العطف والنصح السديد . وكنا جميعاً نعلم حين يجد الجدل أن عنده الرأى الأسد .

وكان فوق ذلك الصديق المرح الذى تتلقفه المجالس لظرف حديثه وسرعة بديهته ، حاضر النكتة ، وكان أسرع الناس تفكيراً وأخضهم ذهناً فى غير عنف ، تواتيه الآراء الصائبة فى غير جلد ولا عناء . وكانت نفسه كريمة صافية من كل ما يشوب صغار الناس ، خالية مما اصططح الناس على تسميته العقد النفسية . وكان همه أن ينتج وأن يقوم بما يستطيع من خير ما دام له إليه سبيل . أما الناحية الأخرى من حياته فهى حبه للفنون الاسلامية ، فقد جمع من السجاجيد القديمة والحزف القديم ما يعد من خير المجموعات التى لدى الأفراد ، وكانت مصدر سرور له فى حياته وموضع شكواه فى مرضه الطويل ، ولم يكن فى مصر معرض فنى إلا وله فيه نصيب كبير .

وليس ذلك كل ما يقال عن أعماله ، فهى كثيرة يقصر دونها الحصر ، وفى بعضها ما يكفى أن يضعه فى الطبقة الأولى ممن خدموا بلادهم خدمات ستبقى على الزمن عنوان نهضتها وأساساً ثباتاً لرقياها .

محمد كامل حسين

أستاذ الجراحة بكلية الطب